

بِسْمِ اللَّهِ - مكة المباركة - ١٤٥١/٧/١٥

(أبو العلاء المصري خبير من المتنبئيين)

في مقال سابق عن المتنبئ مبنئ على فكر أوثق نقاده (طه حسين) نضيت عن ما ألتصق به متأخروا القوميين العرب - زوراً - صوغ الأكرام والفضة، إلا مجرد الأرقاء العربي العاري حيث لا عزة ولا كرامة. وقارنت بين تسيخ المتنبئ شهره للتسؤل على أبواب الأُمراء في استجداء مال أوضيع أو لمارة، وبين اعتزال المصري الأُمراء والعامة ضحسين سنة، وصيانة شهره من التزلف والتسؤل والتذلل. ولكن المصري - مثل المتنبئ - اتهم بالانحراف عن صراط الله المستقيم، ورؤيته عن شيخ السلفيين في سوريا (ويكاد أن يكون السلفي الضرب) محمد بن حجة البيطار رحمه الله أنه حضر مجلساً كثر فيه بعض مجلساء المصري فاغرو وقت عيناها بالتصوم وقال: أتركوه فقد لقي ربه، وعندما زرناد مشق أول مرة عام ١٣٧٤ (أخي صالح وعمارة الحقل رحمه الله وأنا ولا أقول) أعوز بالديون أنا مع الصوام وأشباههم) لم نجد سلفاً غيره له علينا حق الزيارة، وكانت دول المغتربين للسنة منذ عصر ابن تيمية تلتهم أنفاس السلفية والسلفيين واشتهر منهم قبل جمال الدين القاسمي رحمه الله (١٣٣٠) واتهمه المستعرة المفتحة للسنة بأنه على طريقة جديدة في الدين سموها الجمالية (كثرة الوهابية قبلها والجامعية بعدها، تتباهت قلوبهم والسنتهم)، وسجون حتى ظهرت برادته. ولعل الرواية عن شيخنا البيطار رحمه الله هي التي أعادتني للنظر في نقد طه حسين رحمه الله للمصري (وهو المناقش للمتنبئ (٣٠٣ - ٣٥٤) والمعجب به والمقتبس منه، ولكنه - في رأيي - أكرم خلاقاً وأقرب الحق والعدل). ١ - ولد المصري (عام ٦٣٣) في مصر النعمان من بلاد الشام وتوفاه الله في (عام ٤٤٩) وأخذ يدبره في السنة الرابعة من عمره بسبب مرض الجدري.

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء: (هو الشيخ العلامة شيخ الآداب  
أبو العلاء أحمد بن محمد بن عبد بن سليمان وكان قنوعاً متعظلاً وفياً  
يقوم بأمره [قلته] ٣ ديناراً في السنة يصفه الخادم [ولا يقبل من أحد  
شيئاً، ولو تكسب بالمدح ليصل مالاً وديناراً فإن نظم في الذروة يُعَدُّ  
مع المهتبي والبحري، وأرتحل إلى طرابلس واجتمع بالاذقية فترك  
ذراً برأيه متفلسف، فدخل كلام في مسامحة، وعصفت له سلوك  
لم يكن له نور يديفراً، ويقال: تاب من ذلك وارتوى).

قال الذهبي رحمه الله: (خرج صالح بن مرداس ملاح طلباً إلى المطرة بحاصرها  
ورماها بالمجانيق، فخرج إليه أبو العلاء يتشفع فأكرمه، وقال: أليس حاجباً؟  
فقال: هو هذا الفؤ وأمر بالعرض وأعرض عن الجاهلين، فقال: قد  
وهبتك المطرة، فقال بعد:

نحى الحماير من برائن صالح ربِّي يدوي كل داء مضلل

ما كان لي في الجناح بعوضته الله أولاهم جناح تفضل

بذكر الذهبي بعض ما نقل عنه من الإحاديث شراً ونيراً، لا يسرني نقل  
شيء منه فأكون ساكناً في إيشاعة ما هو أعظم من الظالمية  
ويظهر لي من مجموع ما نقل عنه أنه (قبل اعتزاله الناس في الخمسين  
سنة الأخيرة من حياته) شك في دينه وفضل عن الصراط المستقيم  
ولكنه في كرهه ثم شيخوخته عاد إلى رشده، تجاوز الله عنه.

ج - يستدرك طه حسين على توية المصري في عزلة بمثل قوله:

بوعهدية الصائم دنا قدرني أقطع الأيام وحدي

وبمثل قوله:

توعد فإن الله ربك واحد ولا ترغبه في عشرة السفراء

وبمثل قوله:

إنفرد الله بساطه فماله في كل حال كفاء

ما خفيت قدرته عنكم وهل لراعن ذي رشاد فناء

د - ولاري طحسين في كتاب أبي العلاء (الفصول والفتايات)  
ما رأى فيه بعض نقاده من <sup>قصده</sup> معارضته القرآن الكريم واستجابة النبي  
بالإتيان بسور أو آيات من قلم (فقد كان أشد تواضعا من أن  
تبلغ به الكبرياء هذا الحد، وكان أعقل من أن يطاول ما لا يصل  
إلى مطاولته)، ويرى أنه نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في اللغة  
فحاول أن يقلده فلم يفلح، وكانت النتيجة سحبا كسجع القرآن.  
هـ - ومن مناجاة لله في (الفصول والفتايات):

(أرعو لي وعملي حبي، ليحسني، وقلبي فطام لكي ينير، وقد عدلت  
عن المحجة إلى بنات الطريق، وأنت العدل ومن عدك أظاف،  
ولو كان الدع يطفي غضبك فرب لي عبيد كأنهما فمنا حتى  
تبدلان الصباح والمساء، واجعلني في الدنيا منك قبيلا لأفوز في  
الآخرة بالأمان).

ن - وليد المهدي في بيت معلم، وتوكل القضاء طائفة من أهل  
منزهم أبوه وجهته ومحمته وطائفة بعهم، وقرض عدد منهم الشهر  
واستنبط طحسين من شهر المهدي ونثره ثلاث خصال في  
أحواله تميزوا بها: (١) كثرة الترحال، (٢) كرم النفس وسخاؤها  
والجمال، (٣) حب العلم والنبوغ فيه.

و - ظهر أثر ذلك في نبوغ المهدي، ولكنه استبدل الذي هو أدنى  
الأدب والفكر بالذي هو غير العلم الشرعي. ولم يفارق الطفرة  
إلا قليلا، وانتهت الفزلة الترحيانية ولكن الناس لم يفتزلوه فأتى إلى  
بيته طيار العلم ليأخذ <sup>من كل صنوع</sup> ما يتعلق باللغة العربية وأدبها فلم  
يرد أحدا منهم، وربما أخذ الفزلة والتشفسف (في المنزل وطاول  
والهابس) من الفلاسفة الهندية، ومنزلة الامتناع عن أكل اللحوم.

حـ أخذ علوم اللغة عن أبيه في المعرفة، وفتح قلبه عن محمد  
ابن عبد الله بن سعد الكوفي، وأخذ شيئاً من السنة عن يحيى  
ابن مسعود، ولم يظهر عليه من دراسة الحديث شيئاً مما أخذ  
عليه من دراسة اللغة فبرز فريداً في لغته وشعره ونثره وإملائه.  
لم يكن غزوة العدس والزيتون والديس والزيت والواو:  
التين، وثبات القطر، وفراشة لبادي، وللصيف، وفيه قوة نفس  
وكان يحفظ كل ما مرّ بسمعه، وسمي نفسه إلهي الحسين  
للزوم منزله وللف بصره، ولم تر فيه كنية: أبو العلاء فقال:  
دُعِيَتْ أبا العلاء وزال منهن، ولكن الصحيح أبا النزول

وكان يحلي تصانيفه على طهائره من صدره.

يـ وعاب نفسه، وعاب زمانه وأهل زمانه كأكثر أهل الفكر  
والجرل، ومن ابتلي بذلك قل (أوقد) شكره لله تعالى  
على نعم التي لا تحصى على عباده وأعظم نعم الدين ثم نعمة  
العقل. ويظهر من شعره بعد اعتزاله خوف من حساب الله  
وجزائه في الآخرة، وخوفه من نقد الناس شعره ونثره  
(فيما يتعلق بتدينه بخاصه).

ولعلّ شيخنا البيطار رحمه الله ترجّح عنده أنه تاب إلى الله بعد  
اعتزاله الناس، وربما الله لقبول توبته.

وصلة: عبد القاسمي تنقل بين الدفاع عن الدين الحق ثم مراجعته  
ثم تقدّدت الروايات عنه أنه رجع إلى الله قبل موته، تجاوز الدين.

وبقيت مؤلفات الهجري والقاسمي وفيها السمع الزخاف  
ومن حقها على المسلمين أن تحرق وتحرق فلا يضل إلا غير من  
ضلّ إلا في زفرها، ولكن الفكر (الروي) يسعى حينئذٍ إلى المحافظة  
على الآثار الضالّة: مثلاً أو نثر أو وثناً. ردنا الله إلى دينه ردّاً جميلاً